أبو عبد الله محمّد بن أحمد الشّريف الحسني التّلمسانيّ المعروف بالشّريف التّلمسانيّ

(710-771هـ) - 1311-1369م

الأستاذ شريف قصار*

القسم الأوّل : عمره وتكوينه ونشاطه.

لقد شهدت الحضارة التّلمسانيّة ميلاد هذا العالم في الرّبع الأول من القرن الثّامن الهجري واحتضنته طفلا ثمّ شابّا ثمّ كهلا. إنّه أبو عبد الله بن أحمد الشّهير بالشّريف التّلمسانيّ والمعروف أيضا بالعلويّ نسبة إلى قرية من أعمال تلمسان تسمّى العلوين.

1. عصره وبيئته : لقد عاصر العالم بالغرب الأوسط فترة من عهد بني زيّان تولّى فيها الحكم على التّوالي وبالخصوص:

---

* أستاذ بدار المعلمين، بوزريعة، باحث وأديب.

- أبو زيّان محمد بن سعيد الأوّل سنة 703هـ.

- وأبو حمو موسى الأوّل الذي عيّن بعد وفاة أخيه أبي زيّان سنة 707هـ.

- وأبو تاشفين الأوّل الذي تولّى الحكم بعد مصرع أبيه سنة 718هـ ثمّ جاء احتلال المرينيّين لتلمسان. وهكذا استولى أبو الحسن عليها سنة 737هـ/1337م. فعيّن ابنه أبا عنان على تلمسان والمغرب الأوسط قبل أن يغادر العاصمة متوجهاً إلى افريقيّة سنة 748هـ. ثمّ ما لبث أن أصبح الابن السّلطان الشّرعيّ للدّولة المرينيّة بعد وفاة أبيه وذلك سنة 753هـ. وبعد وفاة أبي عنان سنة 759هـ 1358م عاد الحكم إلى بني زيان إذْ أحيا أبو حمو الثّاني الدّولة الزّيانيّة بدخوله مع أنصاره تلمسان سنة 760هـ. وقد توفّي سنة 791هـ ولم تسلم تلمسان في عهد بني زيان من هجوم المرينيّين غربا والحفصيّين شرقا كما أنّها لم تسلم من الفتن والاضطرابات التي كان هؤلاء وأولئك يثيرونها باستمرار قصد القضاء على الدولة الزّيانيّة إلاّ أن الزّيّانيّين كانوا لهم بالمرصاد ممّا جعلهم يهتمّون بالسّياسة الخارجيّة أكثر من اهتمامهم بالمشاريع الدّاخليّة نظرا للظّروف الصّعبة التي كانوا يعيشون في كنفها ولِمَا يحدق بهم من أخطار غربًا وشرقًا وشمالاً ومع ذلك فإنّهم اهتمّوا بالمشاريع الاقتصاديّة والثّقافيّة والعمرانيّة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

ففي الميدان الثّقافيّ تواصلت سُنة الاهتمام العلميّ والنشاط الفكريّ المنبعثة منذ عهد بعيد في الغرب الإسلاميّ وهكذا كان التّعليم منتشرا في شتّى المدن والقرى حيث فتحت الكتاتيب والزّوايا والمساجد أبوابها للطّلبة الذين يتوافدون عليها، منهم من يتعلّم الكتابة والقراءة وحفظ القرآن ومنهم من يقبل على النّحو واللّغة والفقه والأدب ومنهم من يرتقي إلى درجة شبه التّخصّص في العلوم النّقليّة والعقليّة في بعض المساجد كالجامع الأعظم بتلمسان ومنهم أخيرا

من يطلب العلم خارج المدينة بل خارج القطر شرقا وغربا وبجانب هذه المراكز التّقليديّة لنشر العلم مدارس عُليا أسّسها أولو الأمر على غرار المدارس النّظاميّة في الشّرق وهكذا أمر أبو حمو موسى الأوّل في أوّل عهده ببناء مدرسة بتلمسان، تولّى التدريس فيها الأخوان ابنا الإمام. ثم بنى ابنه أبو تاشفين الأوّل المدرسة التّاشفينيّة بجانب الجامع الأعظم في تلمسان أيضا. فكانت أهمّ مدرسة في المغرب الأوسط ثمّ شُيّدت أيام الاحتلال المريني مدرسة بقرية العباد خارج تلمسان أمر ببنائها السّلطان أبو الحسن المريني سنة 748هـ ثمّ مدرسة أخرى بجانب أبو عنان المرينيّ حوالي سنة 754هـ[1]. وحذا حذوهم أبو حمو الثّاني فشيّد مدرسة تمّ بناؤها في أوّل سنة 756هـ. بجانب زاوية كان قد سبق له أن بناها. فأسند مهمّة التّعليم في المدرسة إلى سيدي الشّريف التّلمساني الذي كان أشهر علماء تلمسان آنذاك.

وهكذا أصبحت تلمسان بفضل مدارسها ومسجدها الأعظم مركزا ثقافيّا هاما تخرّج فيه علماء أجلاّء في سائر العلوم والفنون. فالفضل في ذلك للأمراء والعلماء معا. فهؤلاء لم يألوا جهدا في تطوير المناهج وطريقة التّعليم إذْ لوحظ أنّ موقف التّلميذ من الدّرس بدأ يتغيّر إذْ أصبح في بعض الأحيان موقفا إيجابيّا بعد ما كان موقفا سلبيّاً.

2. تعلّمه وتحصيله : لقد نشأ العلاّمة الشرّيف التّلمساني في هذا الجوّ العلميّ الذي يقدح العزائم ويحرّك الهمم ويلهب مجامر القلوب للتّحصيل والعلم. فأوّل ما بدأ به القرآن الكريم الذي تلقّاه تلاوة وحفظا عن الشّيخ أبي زيد يعقوب فلم يلبث أن ظهرت نجابته ممّا حدا بخاله عبد الكريم إلى أن يستصحبه إلى مجالس العلم رغم صغره بل أبى الولد إلاّ أن يتعلّم ويعلّم في آن واحد.فبدأ يقرئ القرآن وهو ابن إحدى عشرة سنة والطلبة حوله بألواحهم يردّدون

---

1. "أبو حمو موسى الزّيّاني" لعبد الحميد حاجيات، ص 36-37.

آيات الله البيّنات. وهكذا كان يفعل السّلف الصّالح. وهكذا ينبغي أن نفعل ومن أراد أن يتدرّب على التّلاوة وإتقان الأداء وأن ينطبع بالطابع العربيّ نطقا وأداء فعليه بالقرآن. إنّه حلوٌ إذا تذوّقتْه العقول وسراج تستضيء به القلوب وشفاءٌ لَما في الصّدور.

ولما فرغ من حفظ القرآن استفرغ وسعه في تحصيل العلوم نقليها وعقليها قديمها وحديثها. هاهو يأخذ عن ثُلّة من الشيوخ أوّلا داخل بلده ثمّ خارج وطنه. إنّه يأخذ بتلمسان عن الشيخين الإمامين أبي زيد وأبي موسى ابني الإمام. يتفقّه عليهما في الفقه والأصول والكلام. ويأخذ عن جماعة أخرى من شيوخ بلده الفقيه الإمام أبي محمّد عبد الله المحاصي والقاضي أبي عبد الله بن عمر التّميميّ وأبي محمّد بن عبد الله محمد ابن محمّد البيروني وأبي موسى عمران المشدالي والقاضي أبي عبد الله بن عبد النّور والشّيخ القاضي أبي العباس أحمد بن الحسن والقاضي أبي الحسم علي بن الرّماح وأبي عبد الله محمد بن النّجّار المنجّم وغيرهم. إنّهم كلّهم يعظّمونه ويبجّلونه ويثنون عليه ويشهدون له بوفور العلم وحضور الذّهن[1].

ثمّ انتقل إلى فاس حيث أخذ أيضا عن علمائها وخاصّة عن الإماميْن السّطى والآبليّ. أمّا السّطى ـ واسمه محمد بن لعي بن سليمان من قبيلة سطّة من بطون أوربة بنواحي فاس ـ فكان أحفظ النّاس لمذهب مالك وأفقههم فيه[2] ممّا حدا بالسلطان أبي الحسن أن يختاره من بين جماعة لمصاحبته ومجالسه. وأمّا الآبليّ فهو شيخ العلوم العقليّة.[3] يقول ابن خلدون "ثمّ لزم شيخنا يعني الشّريف التّلمسانيّ الذي تتلمذ عليه المؤرخ مدّة ثلاث سنين أبا عبد

---

1. *"البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان"* لابن مريم، الجزائر، ص 168.
2. *"كتاب العبر"* لابن خلدون، المجلد السّابع، دار الكتاب للبناني، بيروت، ص 824-825.
3. *"البستان"*، ص 214.

الله الآبلّي وتضلّع من معارفه فاستبحر وتفجّرت ينابيع العلوم من مداركه".

ولمّا بلغ الشّريف التّلمسانيّ أشدّه ارتحل إلى تونس سنة أربعين وسبعمئة. لقي هناك الإمام عبد السّلام الذي احتكّ به أي احتكاك إذْ لم يكتف بحضور مجلسه بل كان يتردّد عليه في داره. يقول ابن خلدون: "وكان ابن عبد السّلام يصغي إليه ويؤثر محلّه ويعرف حقّه حتى لزعموا أنّه كان يخلو به في بيته. فيقرأ عليه فصل التّصوف من كتاب الإشارات لابن سينا بما كان هو قد أحكم ذلك الكتاب على شيخنا الآبلّي. وقرأ عليه كثيرا من كتاب الشفاء لابن سينا، ومن تلاخيص كتب أرسطو لابن رشد ومن الحساب والهيئة والفرائض علاوة على ما كان يحمله من الفقه والعربيّة وسائر علوم الشّريعة"[1] كما احتكّ الشّريف التّلمسانيّ بعلماء تونس الذين أعجبوا به.

ها هو ينقلب إلى تلمسان وقد تزوّد بزاد العلم بمفهومه الإسلاميّ كما أنّه أدرك كلّ الإدراك منذ الصِّبا أنّه لا خير في علم بلا عمل ممّا جعله يأخذ على عاتقه نشر الثّقافة وتربية النّشء وإصلاح المجتمع. فما انتهى إليه من العلم والتّحصيل يرشّحه لذلك. وقد شهد له بذلك أكثر من عالم في زمنه. قال الشيخ الآبليّ: "هو أوفر من قرأ عليّ عقلا وأكثرهم تحصيلا"[6]. لقد كان الشّريف التّلمسانيّ إماما في غير علوم الشريعة كالحساب والتّنجيم والهندسة والموسيقى والطّبّ والتّشريح والفلاحة. كلّ ذلك كان يؤهّله للدّرس والإرشاد ما استطاع إليهما سبيلا. لقد كان العالم الجليل يعلم علم اليقين أنّه يسأل يوما عن عمره فيما صرفه وعلمه هل بلّغه وهل سار على نهج السّلف الصّالح من علماء الدّين.

---

1. كتاب *"العبر"*، ص 856.

6- 7- 8 – 9 – 10 – 11 – 12- 13- *"البستان"* ص 170 وص 174- وص 172 وص 172 وص 168 وص 173 – 173- 174 وص 173- 174 وص 174.

3. نشاطـــه : التّعليم والتّكوين والتّأليف : وهنا تبدأ مرحلة جديدة من حياة العالم. فبعد التّعلم والتّحصيل يأتي دور التّعليم والتّكوين والتأليف بجانب العبادة. هاهو يستأنف التّدريس بتلمسان آتاه الله العلم والحكمة. والتّدريس يقتضي الإعداد والتّحضير وسعة الصّدر والصّبر. هاهو ينكبّ على المطالعة والنّظر في الكتب. فالمطالعة من شأنها أن تثري التّجربة الخاصّة وتقدّم لصاحبها نماذج فذّة من نتائج الفكر الجميل ثمّ إنّها تتيح الفرصة للنّفوذ في عالم غير العالم الذي يعرفه السّواد. وقد "حدّث بعضهم أنّه دخل عليه يوما فوجد بين يديه سبعين كتابا وهو ينظر فيها".

هاهو ينتصب للتعليم والتّكوين. يبدو أنّه كانت له في ذلك ثلاثة أنشطة أساسيّة. أمّا النّشاط الأوّل فيكمن في تفسير القرآن الكريم الذي استغرق خمسا وعشرين سنة. وقد أتى فيه حسب ابن مريم بالعجب العجاب. ناهيك أنّ "مجلسه عظيم هائل يحضره أكابر الملوك والعلماء والصّلحاء وصدور الطّلبة ومشيخة زمانه لا يتخلّف منهم أحد". ولما يكون كذلك وقد كان العالم "عالما بحروفه (حروف القرآن) ونحوه وقراءته واختلاف رواياته وبيانه وإعجازه وأحكامه ومعانيه وأمر ونهي وناسخ ومنسوخ وتاريخ وغيرها". قيل إنّه ختم القرآن مرّتيْن. فبالقرآن بدأ حياته وبالقرآن انتهى نشاطه إلى الأبد إذ يروى أنه وصل في التّفسير إلى قوله تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ...﴾[1]. فمرض بعد ذلك ثمانية عشر يوما ثمّ توفّي ليلة الأحد رابع ذي الحجّة عام 771هـ/ 1369م.

وأمّا النّشاط الثّاني فيتمثّل في مختلف الدّروس التي كان يلقيها في زمن شيوخه. إنّه لشأن عظيم أن ينتصب للتّدريس وشيوخه أحياء. يقول ابن مريم: "أقرأ العلوم في زمن شيوخه وأقبل عليه الخلق مع سلامة العقل. كان عالما بأيّام الله جاريا على نهج السّلف

1. سورة آل عمران الآية 171.

مائلا للنّظر والحجّة أصوليّا متكلّما جامعا لكثير من العلوم العقليّة والقديمة". وممّا يلاحظ أنه كان يفسح المجال للطّلبة لمناقشة ما يقدّمه لهم ويترك كلّ واحد وما يميل إليه من العلوم وأمّا النّشاط الثّالث فإشرافه على التّعليم والتكوين في المدرسة التي بناها له أبو حمو الثّاني عندما صار مالك تلمسان. وقد أقام يدرس العلم هناك إلى أن وافته المنيّة. لقد تخرّج عليه كثير من العلماء المشهورين منهم عبد الرحمن بن خلدون المؤرّخ. "تخرّج عليه من التّلاميذ ما لا يحصى من صدور العلماء وأعيان الفضلاء ونجباء الأولياء."

إنّ اعتناء الشّريف التّلمسانيّ بالإقراء كما يقول ابن مريم جعله قليل التّأليف. ومع ذلك فقد ألف كتابا في القضاء والقدر أجاد فيه وقدر الحق مقداره وعبّر عن تلك العلوم الغامضة أحسن تعبير..." له "شرح جمل الخونجى من أجل كتب الفنّ انتفع به العلماء وأكبُّوا عليه قراءة ونسخا فانتشر" كما له كتاب في المعاوضات. وأخيرا ألّف مختصرا عنوانه "مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول". سأتناول تحليله في القسم الثاني ومن منهجيته العلميّة الحقيقيّة التي قلّما نعثر عليها في المؤلّفات القديمة.

تلك هي الأعمال الجليلة التي قام بها العالم والتي خلّد بها اسمه. فجزاه الله عنّا خير جزاء. إنّها لتنمّ على الرّوح الإسلاميّة الحقيقيّة التي ما فتئ يتشبّث بها: فمن الشّغف بالعلم والجدّ المتواصل والاشتغال بالطلبة والتقدير للشيّوخ، والسّعي لإفادة التلاميذ والتّلطف في هداية النّاس إلى النّصرة للحقّ. لقد كرّس حياته كلّها في سبيل العلم وخدمة المجتمع دون أن يقصّر في العبادة كان "ينام ثلث اللّيل وينظر في ثلثه ويصلّي ثلثه، يقرأ في كلّ ليلة ثمانية أحزاب في الصلاة وفي أول النّهار مثله وبين الصلاتيْن ستة. ويواظب قراءة الحزب دائما".

وقد شاء القدر أن يفارق الحياة دون أن يذوق حلاوة الشيخوخة. فتلك أيضا نبذة يسيرة من حياة الشّريف التّلمسانيّ، حياة ملؤها البرّ والتّقوى.

القسم الثاني: تحليل "مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول"

لقد أمر القرآن الكريم بالعلم ونوّه بمنزلته ما لم يسبق إليه سابق من الكتب السّماويّة ذلك أن العلم طهارة للنّفوس ونور للبصائر وطريق إلى الحقّ. إنّه معرفة الدّين والتّبصّر فيه والشّرب من حياضه. بل هو "حياة الإنسان وعماد الدّين" كما ورد في الحديث الشّريف. ومعرفة الدّين وقف على الإلمام بمجموع ما قرّر في الفقه وأصوله من الكتاب والسّنة والإجماع. وقد صنّفت في ذلك مؤلفات عديدة كما ألّفت كتب قيّمة في تطبيق المسائل الفقهيّة على القواعد الأصوليّة ومن أهمّها وأبرزها في تراثنا الثّقافيّ الوطنيّ "مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول" فعنوانه يدلّ على مغزاه. إنّه كتاب يدلّ على قوّة مؤلّفه العلميّة ورسوخه في علوم الشّريعة وعلوم اللّغة وعلوّ كعبه في المنطق فضلا عن ذوقه السّليم. لقد جاء الكاتب بما يشرح صدر الدّارس ويملؤه سرورا. كفاه ذلك فخرا واغتباطا.

إنّ ترتيب الكتاب ليتجلّى في ذلك التّصميم الدّقيق الذي تبناه المؤلّف والذي استقاه من روح الشّريعة. فالشّريعة هي الكتاب والسّنة والإجماع. إنّها لتستند إلى الوحي والعقل والاجتهاد. فالمستدلّ على حكم من الأحكام في المسائل الفقهية يرجع إلى الأصل أو "الدّليل بنفسه" كما يقول المؤلّف والدّليل يتنوّع نوعين "أصل بنفسه" و"لازم عن أصل" أمّا الأصل بنفسه فصنفان: أصل نقليّ وأصل عقليّ. وأمّا اللازم عن أصل فالقياس والاستدلال ذلك هو رسم القسم الأوّل والأكبر من الكتاب. وأمّا القسم الثّاني

ممّا يتمسّك به المستدلّ "فالمتضمّن للدّليل" ويراد بذلك الإجماع وقول الصّحابي وكلاهما حجّة شرعيّة يجب العمل به على كلّ مسلم. فتلك هي الخطوط العريضة للمؤلّف. ثم إنّ كلّ قسم يتفرّع إلى أبواب يقدّم الكاتب لكلّ موضوع يتناوله الباب. والمقدّمة ليست في غالب الأحيان إلا رسما لما ينطوي عليه الموضوع من أفكار رئيسيّة وثانوية تتمثل في شروط وقيود وما إلى ذلك.يوضّح شرحها للّطيف وتحليلها الدّقيق مُبهمها، ويفصّل مجملها، ويبيّن غامضَها، يتوّج كلّ ذلك بخاتمة مفتوحة.

1. **القسم الكبير من المختصر**: يخصّص للأصل أو "الدّليل بنفسه" والأصل صنفان: أصل نقليّ وأصل عقليّ.

أ. **الأصل النّقليّ**: يشترط فيه أربعة شروط يتناولها الكاتب شرطا، كلّ شرط في باب مستقلّ:

-فالشّرط الأوّل أن يكون الأصل النّقلي صحيح السّند ممّا يؤدّي بالمؤلّف إلى الكلام على التواتر والآحاد. وإذا لم يطل الكلام في القرآن الكريم الذي يعتبر التّواتر جزءا من ماهيته مثل اللغة العربيّة فإنّه قد أطال النّظر فيما يتعلق بالسّند الآحادي من حيث الإجمال والتّفصيل ومن حيث الرّواية المقبولة وغير المقبولة قبل أن يخلص في الخاتمة إلى نقطة لا تخلو من أهمّية ألا وهي مخالفة الراوي لما روى.

-والشّرط الثّاني أن يكون الأصل النّقليّ متّضح الدلالة بعد أن ثبتت صحّته. واتضاح الدّلالة يختلف باختلاف المتن من حيث إنّه قول أو فعل أو تقرير. وهنا يظهر دور اللغة العربيّة من حيث معرفتها معرفة دقيقة ومن حيث إدراك علومها إدراكا كاملا كي توصّل إلى الوقوف على معاني الألفاظ والتّراكيب الواردة في الكتاب والسّنة. والنّظر في الألفاظ لا يخلو من تشعّب ومن خطر لأن اللفظ

قد يكون مفردا وقد يكون مركّبا فضلا عن أنّه قد يحتمل معاني مختلفة. ثمّ إنّ الكلام من حيث معنى الجملة إمّا منطوق وإمّا مفهوم كلّ ذلك وما شاكله يحظى بعناية فائقة لدى الكاتب فلا تمرّ صغيرة ولا كبيرة لها علاقة بالقول إلاّ أحاط بها أي إحاطة وهكذا فإنّه يبحث في القول كما يبحث في الكتاب: هل اللفظ يدلّ على حكم شرعيّ أم لا. أمّا الفعل أعني فعله صلّى الله عليه وسلّم فيتّضح من المؤلّف أن لا تشريع فيه إذ كان جبليّا كالقيام والقعود والأكل إلاّ أن بعض الأئمة أحبّوا أن يقتدى بالنّبيّ عليه الصّلاة والسّلام في الأفعال الجبليّة. وأمّا الأفعال غير الجبليّة فيبحث فيها وذلك بمعرفة صفة الفعل. وصفة الفعل تعلم بنصّ أو استدلال. فالكاتب ينقل إلينا كلّ ما قيل في الموضوع وما قيل في الفعل يقال في التّرك من حيث الدّلالة. وأمّا تقريراته صلّى الله عليه وسلّم وسكوته فتفيد عند الجمهور الأحكام الشّرعيّة.

- وأمّا الشّرط الثّالث فكون الأصل النقليّ مستمرّ الأحكام ومعنى ذلك أنّه غير منسوخ. وهذا يؤدّي بالكاتب إلى الخوض في النّاسخ والمنسوخ ففي مقدّمة طويلة يتناول بدقة حدّ النّسخ في اصطلاح علماء الأصول فالنّسخ هو "رفع الحكم الشّرعيّ المتراخي عنه" وقيل هو "إنهاء الحكم الشّرعيّ".

-وأخيرا فإنّ الشّرط الرّابع أو الباب الرابع في كون الأصل النقليّ راجحا على كلّ ما يعارضه. والتّرجيح يكون إمّا من جهة السّند وإمّا من جهة المتن. فهذان فصلان يعقدهما المؤلّف في هذا الباب. فالفصل الأوّل يستعرض فيه أسباب ترجيح السّند التي لها علاقة مباشرة بالرّاوي ممّا يتمّ على حرصه كلّ الحرص على صحّة الرواية ودقّتها وسلامتها. وأمّا الفصل الثّاني فيتعلّق بالمتن الذي ليس أقلّ خطرا من السّند. فيبحث هنا عن الأسباب التي ترجّح المتن فيحصيها ويمثّل لكلّ سبب كما هو الشأن في سائر الكتاب.

ب. الأصل العقلّي أو الاستصحاب: والاستصحاب ضربان :

- **الاستصحاب بنفسه:** وإذا كان كلّ من الكتاب والسّنة دليلا أصليّا نقليّا فإنّ الاستصحاب دليل عقليّ، وما الاستصحاب إلاّ استمرار الأمر على ما هو عليه إلى أن يقوم الدّليل على تغيّره عمّا كان عليه. وهو في نظر الكاتب نوعان : استصحاب أمر عقليّ أو حسّيّ فهو حجّة عند المالكية والشّافعيّة، واستصحاب حكم شرعيّ قلّما يتمّ في نظر المؤلف إذ هو أضعف من الأول.

- واللازم عن الأصل: ففي مقدّمة بيّن أنّ النّاشئ عن الأصل لا بدّ وأن يدلّ على حكم، وأنّ الحكم قد يكون مماثلا للأصل أو مناقضا لحكم الأصل أو ليس بمماثل ولا مناقض فتلك أقسام أو أبواب ثلاثة يتمّ الكلام فيها عن اللازم عن الأصل.

- أمّا الباب الأوّل فيتناول قياس الطّرد الذي يكون الحكم فيه مماثلا لحكم الأصل.يصدّر كعادته الباب بمقدّمة يعرّف فيها القياس ممثّلا له وذاكرا أركانه الأربعة ثمّ يعقد فصلا لكلّ ركن من أركانه الأربعة: الأصل والعلّة والفرع والحكم دون أن يهمل ما لهذه الأركان من شروط أو مسالك خاصّة بالنّسبة للعلّة. وما المسالك هنا إلاّ الأدلّة الدّالة على أن الوصف علّة في الحكم.

- وأمّا الباب الثّاني فيعالج قياسه العكس وهو إثبات نقيض حاكم الأصل في الفرع لافتراقهما في العلّة. فيضرب المؤلّف أمثلة لذلك إذْ بالمثال يتّضح المقال كما يقال.

- وأخيرا فإنّ الباب الثّالث يخصّص للاستدلال والاستدلال إنّما هو "قياس منطقيّ يستند إلى تلازم بين الحكمين أو تناف بينهما" فما كان بطريق التلازم فثلاثة أنواع: الاستدلال بالمعمول على العلّة واستدلال بالعلّة على المعلوم والاستدلال بأحد المعلولين

على الآخر. وما كان بطريق التّنافي فثلاثة أقسام أيضا: تناف بين حكمين وجودا وعدما، وتناف بينهما وجودا فقط وتناف بينهما عدما فقط. فيستعرض الكاتب هذه الأقسام بأمثلة دقيقة تثلج النّفس بها.

2. **القسم الثّاني من المختصر**: "المتضمّن للدّليل" من إجماع أو قول صحابيّ.

أ. **الإجماع**: إنّما هو اتّفاق أمّة محمّد صلى الله عليه وسلّم على أمر من الأمور الدّينيّة. إنه يفترض أن يجتهد علماؤها من أهل الحلّ والعقد ممّا يتيح الفرصة لتآلف قلوب المسلمين ودعم وحدتهم ومسايرة الرّكب دون العدول عن الصّراط السّويّ. وبعد أن استدلّ الكاتب على حجّيّة الإجماع من القرآن والسّنّة في مقدّمة قصيرة انتهى إلى استعراض مسائل رئيسيّة تتعلّق بانعقاده أو بإجماع الصّحابة والتّابعين وإجماع أهل المدينة وما إلى ذلك ممّا لا يمكننا جهله أو تجاهله.

ب. **قول الصّحابيّ**: وبعد الإجماع بمعناه الواسع يأتي قول الصّحابيّ الذي اختلف فيه. هل هو حجّة أو ليس بحجّة. إنّه حجّة عند مالك وحجّة أيضًا عند الحنيفية لكن شريطة أن يخالف القياس. ذلك مضمون الكتاب وتلك طريقة المؤلف في وضعه الكتاب ومعالجة مواضيعه.

فالكتاب على صغر حجمه غزير المادّة قليل الألفاظ كثير المعاني سهل الأسلوب غنيّ بالشّواهد والأمثلة. وممّا يزيده جمالا ورونقًا ويرفع من شأن صاحبه بل يبعث على الإعجاب به والارتياح لمنهجيّته العلميّة السّليمة أنّه جعل نصب عينيه الموضوعيّة التي هي سمة كلّ عالم مقتدر وشرط لكلّ تكوين علميّ جعله ـ وهو مالكيّ المذهب ـ لا ينحاز ولا يتعصّب لمذهبه بل كان همّه الوحيد بيان الخلاف بين المذاهب وتفادي كلّ تجريح أو ترجيح لبعضها دون

البعض الآخر أو حضّ القارئ على الاختيار. فالأمر موكول إلى الدّارس البصير وإلى الطّالب النّجيب.

وتجدر الإشارة في الأخير إلى أن المؤلف لم يلمّ بما تقول أو تأخذ به المذاهب الأربعة أو بعضها من المصلحة المرسلة والاستحسان والعرف وسدّ الذّرائع فضلا عن الاجتهاد الفرديّ، وليس هذا بتقصير منه. إنّه من البديهيات إذ لا يعقل أبدا أن يضرب الدّين صفحا عن كل ما من شأنه أنْ يعين على استنباط الأحكام أو شرحها أو تطبيقها شريطة أن لا يخالف النّصّ القطعيّ وأن لا يضرب بالمقاصد عرض الحائط.